تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : { ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم } قال الله تعالى : { والله يشهد إنهم لكاذبون } أي لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ولهذا قال تعالى : { ولئن قوتلوا لا ينصرونهم } أي لا يقاتلون معهم { ولئن نصروهم } أي قاتلوا معهم { ليولن الأدبار ثم لا ينصرون } وهذه بشارة مستقلة بنفسها كقوله تعالى : { لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله } أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله { إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية } ولهذا قال تعالى { ذلك بأنهم قوم لا يفقهون } ثم قال تعالى : { لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر } يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة .

ثم قال تعالى : { بأسهم بينهم شديد } أي عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى : { ويذيق بعضكم بأس بعض } ولهذا قال تعالى : { تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى } أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين { ذلك بأنهم قوم لا يعقلون } ثم قال تعالى : { كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم } قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان : يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله تعالى : { كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك } يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتنصل وقال { إني أخاف الله رب العالمين } وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها فقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم أخبرنا النضر بن

شميل أخبرنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت عبد ا بن نهيك قال : سمعت عليا Bه يقول إن راهبا تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها عليكم بهذا القس فيداويها قال فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك فاسجد لي سجدة فسجد له فلما سجد له قال إني بريء منك إني أخاف ا رب العالمين فذلك قوله : { كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف ا رب العالمين } .

وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد ا بن مسعود في هذه الاية { كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف ا رب العالمين } قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : وا لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لابل قصها علينا قال فقصها فقال الاخر : وأنا وا لقد رأيت ذلك فقال الاخر : وأنا وا لقد رأيت ذلك قالوا : فوا ما هذا إلا لشيء قال فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برضيضا فا أعلم .

وهذه القصة مخالفة لقصة جريج العابد فإن جريجا اتهمته امرأة بغي بنفسها وادعت أن حملها منه ورفعت أمرها إلى ولي الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول ما لكم ما لكم ؟ قالوا يا عدو ا فعلت بهذه المرأة كذا وكذا فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جدا ثم قال يا غلام من أبوك قال أبي الراعي وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيما بليغا وقالوا نعيد صومعتك من ذهب قال لابل أعيدوها من طين كما كانت وقوله تعالى : { فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها } أي فكان عاقبة الامر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها { وذلك جزاء الظالمين } أي جزاء كل ظالم